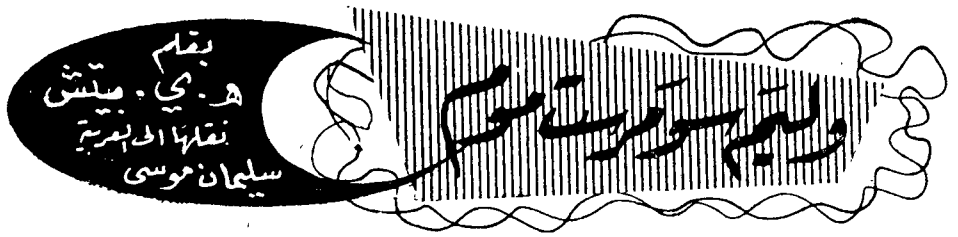

ملبسة سومرست موم

اصطلح رجال الادب على تسمية كل فترة من فترات الزمن باسم شيخ كبير من الادباء. وفي شبابي كانت الزعامة لهاردي ، تلك الزعامة الخالدة التي احرزها باشعاره ذات الطلاوة الحادة . وفي العشرين او الثلاثين سنة التي تلت انتقلت الزعامة لبرنارد شو الذي فاق معاصريه امثال جالسورثي ، شستروتون وبنت و ولز . اما اليوم فقد عقد لواؤها لوليم سومرست موم* الذي ولد بعيد الحرب الفرنسية البروسية.

ومن الكتاب من نضع مؤلفاتهم في واجهات المكتبات للزينة ، ومنهم من نضع مؤلفاتهم جانباً ليتراكم عليها الغبار ، ومن هؤلاء ثرولوب وميريدث وثاكري .

وهناك مؤلفون تحظى اثارهم بالبقاء فينتصرون على واجهات المكتبات وعلى الغبار، بسبب شعلة القوة الكامنة في تلك الآثار كاميلي برونتيه وشارلس دكنز . والى هذا الصنف الأخير يمكن ان نضيف اسم مؤلف « كعك وخمر » .

وموم كاتب ذو عدة مزايا بارزة ليس اقلها شأناً كونه بدأ حياته الأدبية دون موهبة طبيعية للكتابة . وقد اوحت له دراسة الطب في لندن موضوع كتابه الاول «ليزا من لامبث» الذي طبع عام ١٨٩٧ . وتتألف حياة موم الادبية من ثلاث مراحل :

بدأ بالرواية فأحرز نجاحاً عظيماً بقصته « من عبودية الانسانية » ، وبروايته الفضلى « كعك وخمر » . وفي الوقت ذاته غزا المسرح بمسرحياته غزواً ناجحاً كاملاً حتى اتفق ان مثلت مسارح لندن اربعاً من مسرحياته في آن واحد .

اما المرحلة الثالثة — وهي اعظمها ، في نظري ، حاضراً ومستقبلاً — فلم تبدأ إلا عندما اشرف المؤلف على الخمسين من عمره . ففي ذلك الوقت ظهر اسم موم ككاتب اقصوصة ... اقصوصة ليست كاقاصيص الهواة عرجاء ، تتلمس الطريق ، وإنما انتاج رجل متمكن من فنه . وقد بدأ هذه المرحلة بمجموعته المشهورة « المطر » .

وصناعة الاقصوصة عسيرة دقيقة وما اقل من يجيدونها . وكان الاعتقاد سائداً ان الاقصوصة فنّ يمارسه الشبان من الكتاب ، ونرى ان تشيكوف ، كبلنغ ، ولز ، موباسان ، ستيفنسون ، هنري ، كاترين مانسفيلد ، همنغواي ولورنس — هؤلاء كلهم وضعوا اجود اقاصيصهم وهم في سن الشباب ومعظمهم ماتوا قبل ان يصلوا الى السن التي ابتدأ فيها موم مرحلته الثالثة.

ويذكّرني موم — من هذه الناحية — بالرسام الفرنسي بيسارو ، الذي لم يسمح لعضلات فنه ان تتصلب وتتكمش رغم تقدمه في السن ، بل كان دائماً يمرّن تلك العضلات على ان تجاري التطورات وتباري شباب المدارس الحديثة .

وفي العشرين السنة الاولى من هذا القرن دخلت الاقصوصة — في انجلترا وامريكا — في طور جديد . ففي هذه الفترة ظهر همنغواي ، لورانس ، كاترين مانسفيلد ، وليم فوكنر ، شروود اندرسون وكوبارد . ومن المستحيل ان نجد ظاهرة واحدة يتفق فيها انتاج واهداف هؤلاء الكتاب وكثيرين غيرهم من معاصريهم. واقرب وصف يمكن ان نطلقه عليهم هو انهم شعراء يحاولون ان يقولوا ما عندهم باسلوب نثري .

اما موم فليس شاعراً ولم يكن قط شاعراً . وهو اول من يعترف بهذا . وشعوره بالطبيعة ضعيف الى حد انه لا يحسن كتابة ما يدعى « عبارة وصفية » — كما قال لي حديثاً — ولا تجد في كتاباته عنفواناً وترعرعاً ، بل هو كالخباز الذي يصنع ارغفته عادية دون تنميق او تزويق .

ومن المهم ان ندرك هذا ، لان هذه العادية الخالصة هي في الحقيقة مفتاح انتاجه كله ، وأي قارىء لقصة « ليزا من لامبث » يلاحظ ان الكلمات لا تنثال على مؤلفها بسهولة، وان ليس فيها ذلك التدفق العارم الذي نجده في كثير من الكتب الاولى للمؤلفين .

وكان اسلوب موم في بداية حياته الأدبية — كاسلوب جورج مور — منقبضاً جافاً ، ولكن موم ذو ذكاء خارق ، وهو ينظر الى نفسه دائماً نظرة موضوعية صارمة ، وقد ادرك انه يتوجب عليه ان يحذو في اسلوبه حذو احد المؤلفين دون ان يكون ذلك الاحتذاء تقليداً . واختار جي دي موباسان وكان موفقاً في ذلك ، ثم احتذى طريقة صموئيل بتلر — وكان شو مديناً لبتلر ايضاً — واخيراً اتبع الطريقة المثلى فاحتذى نفسه .

* كتب هذا المقال بمناسبة بلوغ موم الثانين من عمره.

قيل عن موباسان انه « الكاتب الاصيل البارع الذي جنت عليه نصائح فلوبير » وقد افاد موم من هذا القـــول إذ انه لم يخف اعتقاده الجازم ان من جملة دوافعه لوضع كتاب ما هو ان يكون هذا الكتاب مقروءاً . وقد تعـــلم من موباسان اسرار الحوار الطريف ، وقد ادهش اعتقاده هذا اولئك النقاد الذين كانوا يسارعون الى ازدراء كل كاتب يباع من كتبه ما يزيد عن عشرة الاف نسخة .

ولم يستهو موم ذلك الوهم والتدجيل الذي يحيط باولئـك الكتاب بسبب ايغال كتاباتهم في الغموض والالتواء واللولبة كأنما هم اصحاب رسالات متميزة . فموم ليس صاحب رسـالة ما ، وهو كموباسان يهتم بالناس ومشاكلهم غـــير مشترط في الاشخاص الذين يهتم بهم ان يكونوا ذوي سـيرة حسنة ، أو كراماً نبلاء ، أو ممن يودّ لو تناول عشاءه معهم — بل هو يهتم بهم كنماذج لا غير ، وهو قانع بكونه يقدم فيما يكتب عـالم النفس الانسانية باسره .

وللجماهير عدة آراء غريبة فيما يقـــدّم لها من اقاصيص ، وأحد هذه الآراء ان الروائي يجب ان يكون صادقاً ليقـدم مواضيع ذات صبغة واقعية ، وموم يعرف خيراً من هـذا ، لان المواد الخام في الحياة — كما يقول هو نفسه — غالبـــاً ما تكون قطعاً مبعثرة لا هدف لها ، ووظيفة المؤلف ان يبرزها في اطار مصقول مهذب ذي وحدة كاملة .

وبكلمات اخرى : فان عمـــل المؤلف لا ينحصر في قول الصدق بقدر ما يتوجب عليه ان يبالغ ويهمـــل ويحوّر بل ويشوّه ما يرى ، لكي يحتوي عمله — كما لاحظ ثاكري — : «صدقاً في روحه ومغزاه اكثر مما لو كان عمله كله صدقاً خالصاً » وطريقة الروائيين هذه لا تكسب لهم الاصدقاء دائماً ،

« تستحوذ اهتمامات الأديب الفكرية على لبه الى حد ان يرى ما عداهـــا من المشاغل باهتة شاحبة » هذا ما قاله سومرست موم في عيد مولده الثمانين . وهو نفسه ما يزال يؤلف منذ ستين عاماً ، بيع من كتبه خلالها ما يزيد عن الثلاثين مليون نسخة .

ولد موم في ٢٥ كانون الثاني ١٨٧٤ في باريس حيث كان ابوه يعمل مستشاراً قضائياً للسفارة البريطانية . وقد توفي والداه في صغره فنشأ في رعاية عمـــه . وفي طلبه للعلم قام باولى رحلاتـــه الكثيرة فذهب اولاً الى انجلترا (مدرسة الملك في كنتربري) ثم الى ألمانيا (جامعة هيدلبرج) وبعد ذلك درس الطب في مستشفى القديس توما بلندن وحصل على إجازته عام ١٨٩٨ .

وقد اوحت له اختباراته في دراسة الطب بروايته الواقعية الأولى « ليزا من لامبث » التي أثارت عاصفة شديدة عام ١٨٩٧ : وشجعه نجاحه فيها ورغبته الكامنة لمواصلة الكتابة فأنتج قصصاً ذات شهرة عالمية ومسرحيات ناجحة وعشرات من الأقاصيص الرائعة .

وليم سومرست موم

وسومرست موم يرحل دائماً للتفتيش عن المواد الخام لقصصه . وعندما اعتزم ان يحترف الكتابة ، ذهب اولاً الى اسبانيا ثم الى ايطاليا ، وبعد ذلك طاف بأرجاء فرنسا وامريكا والصين وبورما والهند والبحار الجنوبية ومعظم اقطار اوربا . وكان دائماً يعود من رحـــلاته تلك بمواضيع قصصه ، ولذا فان في مقدور قارىء مؤلفاته ان يرى العالم وهو جالس على مقعده .

وهو يعيش الآن في منزله الجميل بالريفييرا ، ولا يزال جم النشاط في مواصلة اعماله الادبية . وفي منزله هذا يستقبل كثيراً من اصد ومن جملتهم دوق ودوقة وندسور وونستون تشرشل بالاضافة الى اصدقائه من الادباء والفنانين . وكثيراً مـا يستعير الـ ب — كأي شخص عادي — من المكتبات العامة ويطالع احياناً بعض الروايات البوليسية ، كما يتسلى احيانـاً اخرى بلعب الورق .

اما مؤلفات موم المذكورة في هذا المقال :

Lizaa of Lambeth. Cakes and Ale. Of Human Bondage.
Rain. The Summing Up. The Gentleman In The Parlour.

ويمكن أن يقال حقاً انها غالباً ما كسبت العداوات لموم، فهو قبل ان يضع مجموعته « المطر » كان قد ساح كثيراً في اقطار الشرق والشرق الأقصى والبحار الجنوبية ، وقد لاحظ بعينيه الحادتين اشياء لم يلاحظها المواطنون انفسهم من بيض وملونين، وكان من الطبيعي ان تدفعه مشاهداته ليكتب عنها .

ولو ان موم كتب عن مشاهداته تلك وهو في شبابه لأتحفنا بما يختلف عما كتب فعلاً . ولكن موم كان قد تقدم في السن واتسعت آفاق فكره كما تقلّصت اوهامه . اما اسلوبه – وكان قد بدأ يحتذي بتلر – فقد صار حادّاً بل قارضاً قارصاً ، واصبحت عين فكره ثاقبة متهكمة طروبة قاسية .

ولهذا لا يستغرب إذا كانت معظم اقاصيص موم التي تدور حول رحلاته – وعلى الأخص ما تعرّض منها لمستوطنات البيض حيث تبحث النساء المستنسرات عن الترف والمسرات الشهوانية – إذا كانت هذه الأقاصيص لم تحظ برضى اولئك الذين رأوا انفسهم بين صفحاتها .

ومع ان موم حاول ان يكون قريباً من الحقيقة بقدر المستطاع ، فان اي انسان خبر حياة المستعمرات يجد ان اقاصيصه – بكل مافيها من عمق وتحطيم – لا تتعدى ان تكون نظرة عجلى لواقع الحال . ولم يلمس موم سوى اطراف ما في تلك المجتمعات من دسائس وتخرصات وشغب وفسق وغيرة واقليمية . ورغم كل هذا التحرز من جانبه فان كثيرين عصف بهم الغيظ ، ظناً منهم ان احداً ما قد اختلس النظر الى اموزهم الشخصية الخاصة . وانني موقن ان هذا لم يزعج موم ، فالناس كثيراً ما اتهموا المصورين والروائيين بانهم يصورون الاشياء تصويراً لا يتفق مع تصوّر العامة لها . ولكن الناس عادة لا يحسنون رؤية انفسهم .

ونرى موم على حقيقته في الانتاج الذي وضعه بعد ان نضج فنه وتقدم في مضمار التأليف . فهو الهجاء القادح في « كعك وخمر » والمهذب الساخر في « السيد في الصالة » . والانسان البارع في صراحته وتحليل نفسه وعالمه ومعاصريه في « الخلاصة ».

ان موم يكبرني بما يزيد عن ثلاثين عاماً . فهو من عصر يسبق حتى عصر ابي وامي . وعندما اجتمع به احياناً اشعر تجاهه بالتهيب والاحجام. ورغم هذا اجده ظريفاً حسن المعاشرة.

وفي منزله بكاب فرات في جنوبي فرنسا ، حيث تكوّن حديقته في نيسان منظراً بديعاً بازهارها الزرقاء والارجوانية وحيث المناظر الخلابة تطالعك حيثما ادرت ناظريك – في هذا المنزل التقيت به قبل ثلاثة اعوام وتحدثنا عن هوايتنا المشتركة في الرسم والتصوير .

وفي العام التالي عندما التقيت به في لندن جعلتني حيويته الدافقة احسب كأنه لا يزال في الستين من عمره . وقد غضبت يومذاك لأن احد النقاد وصفه بـ « عود الطوطم » . وهو في الواقع ليس كذلك بل اشبه ما يكون بثمرة جوز الهند التي تتدفق داخلها الحلاوة رغم صلابة قشرتها .

وبالرغم من ان عمليتين جراحيتين اجريتا له اخيراً ، فان حيويته ما تزال في عنفوانها . وهو يعمل الآن في كتابة سلسلة مقدمات لعدة قصص كلاسيكية . وربما كان لحيويته وقابليته للتجدد اكبر الفضل في كون اعماله الادبية – عدا مسرحياته – لا تزال قشيبة حتى اليوم .

لقد صدق موم عندما قال مرة : ان اعماله الادبية قد لا تبور بسبب بساطة اسلوبها وسلاسته . واعتقد ان مؤلفات موم لن توضع في واجهات المكتبات للزينة فحسب. فهي ممتلئة بالناس والحركة وممتلئة ايضاً بذات نفسه .

تعريب

المفرق (الاردن) **سليمان موسى**

دار بيروت – للطباعة والنشر

بناية اللعازارية ، تلفون ٣٩٥ بيروت – لبنان

ظهر حديثاً

١ – كارل ماركس

تأليف : هنري لوفافر ترجمة : محمد عيتاني

٢ – الوجود فلسفة انسانية

تأليف : جان بول سارتر ترجمة : حنا دميان

٣ – وراء الرغيف

تأليف : مكسيم غوركي ترجمة : بهيج شعبان

تحت الطبع

١ – الوجودية ليست فلسفة انسانية

٢ – قصص مختارة من الأدب السكندينافي

٣ – هذه هي الديالكتيكية

تطلب هذه الكتب من

وكيل الدار في عموم افريقيا السيد محمد خوجه – تونس

وكيل الدار في عموم العراق السيد محمود حلمي – بغداد